المحاضرة الرابعة: الصحافة مؤسسة فاعلة في التحولات التاريخية

لطالما وُصفت **الصحافة** بأنها المسودة الأولى للتاريخ، بيد أنها في جوهرها تتجاوز مجرد التدوين لتلعب دور المحرك الاستراتيجي الذي يصنع الحدث قبل تأطيره؛ فمنذ بزوغ فجر المطبعة، لم تكتفِ هذه المؤسسة بنقل الأخبار، بل تحولت إلى أداة فاعلة قادرة على خلخلة الأنسجة الاجتماعية وصياغة الوعي الجمعي في لحظات التحول الكبرى .ولعل خير دليل على ذلك هو الدور المحوري الذي لعبته الصحافة الوطنية إبان الثورة الجزائرية، حيث كانت سلاحاً للمقاومة ووسيلة للتعبئة وتوثيق الكفاح الشعبي ضد الهيمنة الاستعمارية .وعليه فإن التاريخ لم يكتبه القادة والسياسيون بمفردهم، وإنما شاركت في صياغته سلطة رابعة حوّلت الكلمة المكتوبة إلى قوة مادية قادرة على توجيه مسارات الأمم وبناء الوعي الوطني .ومن هذا المنطلق تتبلور إشكالية محاضرتنا في التساؤل التالي :**كيف استطاعت الصحافة كمؤسسة اجتماعية وسياسية أن تتحول من مجرد ناقل للأحداث إلى فاعل استراتيجي في صناعة التحولات التاريخية؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبارها أداة لتحرير الوعي الشعبي أو وسيلة لحصر مسارات التاريخ في اتجاهات إيديولوجية معينة؟.**

أولا : المرتكزات النظرية للصحافة كفاعل تاريخي

تستمد الصحافة فاعليتها التاريخية من قدرتها الفائقة على صياغة "المجال العام"، وهو الفضاء الذي تلتقي فيه الأفكار لتشكل وعياً جمعياً قادراً على التغيير، إذ يرى المنظرون أن الصحافة لم تعد مجرد وسيط تقني لنقل المعلومة، بل استحالت بنية مؤسساتية تفرض أجندتها على النقاشات الوطنية وتدفع بالمجتمعات نحو الانتقال من حالة التلقي السلبي إلى حالة الفعل السياسي المؤثر، وهو ما يجعل الكلمة المكتوبة ركيزة أساسية في أي تحول ديمقراطي أو ثوري عبر التاريخ الحديث والمعاصر[1] .

وفي سياق متصل، تضطلع الصحافة بوظيفة بنيوية حاسمة في صناعة الهوية الوطنية، من خلال دورها كحارس للذاكرة الجماعية ومصدٍّ منيع ضد محاولات التغييب أو المسخ الثقافي؛ إذ تتحول المنابر الصحفية في المنعرجات التاريخية والأزمات الوجودية إلى قلاع فكرية تذود عن مقومات الأمة من لغة وقيم وأصالة. إن هذا الدور لا يقتصر على التوثيق الفني فحسب، بل يمتد لبلورة مفهوم 'الدولة–الأمة' في الضمير الجمعي، محولاً الرابطة الوطنية من مجرد انفعال وجداني

---

[1] ينظر: خليل صابات، تاريخ الصحافة في مصر والعالم، دار المعارف، القاهرة، ص 52.

عابر إلى **مشروع** سياسي استراتيجي متجذر، يمنح المجتمع القدرة على مجابهة الاختراقات الخارجية وفرض السيادة الرمزية والمعنوية كتمهيد ضروري لترسيخ السيادة المادية على أرض الواقع [2].

وعلى صعيد آخر، تتجلى الفاعلية التاريخية للصحافة من خلال سلطة التوجيه والانتقاء الإعلامي، وهي الآلية التي تتيح للمؤسسة الصحفية التحكم في مسارات الأحداث عبر ترتيب أولويات الاهتمام الشعبي. فمن خلال عملية الترتيب الأجنداتي (Agenda Setting)، تمنح الصحافة ثقلاً استراتيجياً لوقائع معينة وتضعها في صدارة المشهد كقضايا رأي عام مصيرية، في حين قد يتم تهميش وقائع أخرى مما يؤدي إلى إقصائها من الوعي الجمعي والذاكرة التاريخية. إن هذا الدور المحوري يعني أن العمل الصحفي يتجاوز الرصد السطحي للواقع ليدخل في مرحلة إعادة بناء الحدث وصياغة دلالاته، مما يؤثر بشكل مباشر على المنظومة الإدراكية للأجيال القادمة تجاه تاريخها، ويفرض في الوقت ذاته إطاراً ضاغطاً على صناع القرار الذين يجدون أنفسهم ملزمين بالاستجابة للرأي العام الذي صاغت المؤسسة الصحفية توجهاته الكبرى [3]

ثانيا: الصحافة في منعرجات التحول الكبرى (قراءة سوسيو–تاريخية)

بالإسقاط على حركات التحرر الوطني، نجد أن الصحافة الجزائرية مثلت نموذجاً فريداً للمؤسسة الفاعلة التي زاوجت بعبقرية بين العمل الإعلامي والنضال الميداني، حيث لم تكن إصدارات مثل "المقاومة الجزائرية" و"المجاهد" مجرد منابر لنشر الأخبار العسكرية، بل كانت "هيئة أركان إعلامية" نجحت في تحطيم جدار الصمت الاستعماري وتدويل القضية الجزائرية في المحافل الدولية، مما أدى إلى كسب تأييد الرأي العام العالمي وتحويل الثورة من تمرد محلي في نظر المستعمر إلى قضية تصفية استعمار عادلة تحت أنظار المجتمع الدولي.

أما على صعيد التحولات العالمية الشاملة، فقد كانت الصحافة هي القوة الناعمة التي مهدت للثورات الكبرى كالثورة الفرنسية وحركات التنوير، فمن خلال تبسيط الأفكار الفلسفية ونشرها بين الجماهير، استطاعت هذه المؤسسة كسر احتكار النخب للمعرفة، مما زعزع أركان الأنظمة التقليدية القديمة وأرسى دعائم أنظمة قائمة على المواطنة والدستور، لتثبت الصحافة بذلك أنها شريك عضوي في صياغة الحداثة السياسية والاجتماعية وتوجيه دفة التاريخ نحو آفاق التحرر.ولا يقتصر هذا التأثير على الماضي البعيد، بل يمتد ليشمل التحولات المعاصرة في عصر العولمة، حيث أثبتت التحقيقات الصحفية الكبرى قدرتها على زعزعة أنظمة سياسية راسخة وتغيير مسار السياسات

---

[2] ينظر: هند عزوز، الصحافة الجزائرية وتنمية الوعي لدى القراء، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2013، ص 125.

[3] ينظر: عبد المجيد رمضان، مفهوم المسؤولية الإجتماعية للإعلام، مجلة دفاتر السياسة والقانون، 2013، ص 355.

الاقتصادية والبيئية العالمية. إن هذه القدرة المستمرة على الكشف عن المسكوت عنه تجعل من الصحافة مؤسسة رقابية دائمة تحول دون ركود الأحداث وتدفع بالمجتمعات نحو التصحيح الذاتي والمراجعة المستمرة لمساراتها، مما يؤكد أن التاريخ لا يكتبه المنتصرون فحسب، بل يكتبه أيضاً أولئك الذين يملكون جرأة النشر[4].

ثالثا: تحديات المؤسسة الصحفية في ظل العولمة الرقمية

تواجه الصحافة في العصر الراهن تحديات بنيوية كبرى قد تحد من قدرتها على قيادة التحولات التاريخية الرصينة، وعلى رأسها طغيان المنطق التجاري والتبعية لمراكز القوى المالية العالمية، فحين تتحول المؤسسة الإعلامية إلى مشروع ربحي بحت، تضطر للمقايضة بالدقة المهنية مقابل السبق الإعلامي، مما قد يؤدي إلى إنتاج "وعي زائف" يعيق التحولات التاريخية الحقيقية ويخدم استقرار المصالح الضيقة لشركات كبرى أو أجندات سياسية عابرة للحدود، مما يفرغ الصحافة من رسالتها التاريخية السامية .

من جانب آخر، أحدث الانفجار الرقمي وبروز "الصحافة البديلة" نوعاً من تفتيت وحدة الخطاب الإعلامي، مما خلق حالة من السيولة المعلوماتية التي يغيب فيها التحرير المهني الرصين، وأصبح انتشار "الأخبار الزائفة" يهدد دور الصحافة كمؤسسة مرجعية لصناعة الوعي، حيث يختلط الخبر بالدعاية، مما قد ينحرف بمسارات التحول التاريخي نحو الفوضى أو النزاعات الهامشية التي تستنزف طاقات الشعوب بدلاً من توجيهها نحو البناء والتطور الحضاري .

---

[4] ينظر: زهري أسماء، الصحافة المكتوبة ومسار التحول الديمقراطي، جامعة قسنطينة، 2015.